ميتافيزيقيا الاستشراق وصورة الإسلام

مبارك الحمداني

يذهب رُضوان السيِّد في مقالته المعنونة «الصراع على الإسلام»، إلى تحليل الجدلية التاريخية القائمة بالاشتباك المعرفي والمنهجي بين كلٍّ من الاستشراق كحقل بحثي تنقيبي، وبين الإنثروبيولوجيا كحقل علمي منهجي مُستقل فيما يتعلق بالكشف عن الخيوط الأولى للإسلام ما بعد عهد الإنجيل.

فالاستشراق كحقل بحثي -كما يصفه الكثير من المشتغلين بدراساته ومفاهيمه الحقلية- لم يكن يوماً علماً مبرأً عن الأسبقيات المعرفية أو منزّهاً عن المآرب الغربية «الاستعمارية»؛ حيث يرى الكثير منهم أن دور الوصاية السلطوية الذي مارسته الثقافة الغربية تجاه الثقافات الأخرى ومنها ثقافتنا الإسلامية، وَسَم الاستشراق بصورة التبشير الديني تارة، وصورة التمثيل التصويري تارة أخرى، وصورة الاستعمار المباشر تارة أخرى.

وإذا ما عدنا إلى محورية الورقة، فإننا نتجه إلى ذات الاتجاه الذي يؤكد عليه السيد بالقول إنَّ الاستشراق بوصفه حقلا أوليًّا يعد المصدر الرئيس لبدايات تناول الدراسات الإنثروبيولوجية في بلدان الشرق الأوسط؛ حيث إنَّه وبالنظر إلى المستشرقين الأوائل وحصر المنابع التي جاءوا منها، نجد أنهم في الغالب هم من علماء اللاهوت في العهدين القديم والجديد، والبعض منهم من المبشرين المسيحيين، وفئة لا بأس بها منهم هم من أولئك الذين أسرتهم حكايات وقصص الشرق وأساطيره.. وفي هذا يذكر عمر كوش في مقالته (عندما يصنع الاستشراق رؤية نمطية عن الشرق ومجتمعاته).. قائلا: «...ارتبطت بدايات الاستشراق بحاجة الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية إلى معرفة تفاصيل أرض وموطن السيد المسيح، لكن الاستشراق استغل من طرف القائمين على الكنائس الأوروبية، كي تجري عمليات مطابقة لصورة فلسطين والشرق مع تلك الواردة في العهدين القديم والجديد، كما جيَّرته القوى الرأسمالية الصاعدة في فرنسا وبريطانيا لمصلحة مطامعها الاستعمارية...».

... إنَّ الاستشراق كفاعلية حضارية من الفاعليات التي لا يمكن لنا أن نغفل أنها ارتبطت بشكل أو بآخر بمظاهر الثقافة الغربية وطبيعة النظرة الاستعلائية التي تنظر فيها إلى الشرق. وهذه النظرة في حد ذاتها ترتكز على جُملة من المفاهيم وبراديغمات التفوق التي تعززها معايير الفوقية العرقية ومقومات المركزية الثقافية والسياسية الغربية. وقد عزَّزت هذه النظرة -بحسب ما يذكر الدكتور صلاح الجابري في "الاستشراق بين الغايات المسبقة والرؤى النقدية- التطورية الاجتماعية، قصد تحقيق رغبة الإنسان الأوروبي في القرن الثامن عشر، في ترتيب سائر الشعوب الأخرى في سلَّم التطور، ومحاولة منه للعثور على تبرير وتعليل علمي لتنوع الثقافات وتباينها وتفاوتها، لتسويغ الهيمنة الأوروبية، وهو ما وجد صيغته الفلسفية في أفكار هيجل، وماركس، وروبنز.

... إنَّ فهم التحول الذي حصل في القرن الـ١٩ تحديداً، والذي تحوَّل فيه الاستشراق إلى فعالية استعمارية لا يمكن دونما تفكيك طبيعة الصورة الاجتماعية والحضارية التي يبنى عليها، والتي تنطوي على النظر للاستشراق بوصفه الوسيلة الحضارية المعبرة عن القوة (الأوروبية-الأطلسية) إزاء الشرق. ومن هنا، فإنَّ قيمة الاستشراق الأداتية إنما تكمن في كونه إنشاءً لغوياً عن الشرق، هدفه السيطرة عليه، وقد تجلَّت هذه الصورة من خلال "الماهية" التي صور بها الاستشراق دول الشرق بمكنونها الحضاري والمجتمعي عبر إعادة بنائها بعيداً عن واقعها في الغالب، ووفق مسلمات ذهنية غريبة تشذب حقيقية الواقع التاريخي والنفسي للشرق.. ومنها كان الاستشراق في أولى تمثلاته إنما هو نتاج حقيقي لمنتجات التمركز الغربي على الذات.

وبالرغم من أن الشرق الذي كان محور الدراسات الاستشراقية ليس كياناً واحداً، فإنَّ الأبحاث والدراسات الاستشراقية صوَّرته بناء على مُسبقات وأحكام التمركز الغربي. وعلى ضوء ذلك، يذكر السيد أنَّه ظلت الكثير من الدراسات في هذا الحقل تراوح بين اعتبار الإسلام (مسيحية محرَّفة) أو (يهودية منحرفة)؛ فتريح نفسَها بحسب تعبير السيد بذلك من الاعتراف بالتغيير في المنطقة بعد عصور الإنجيل. ومن هنا؛ فإنَّ الدراسات الاستشراقية -إنْ صح القول- كانت تمارس التفكيك والفصل الميتافيزيقي بين "الغرب" و"الشرق" على ضوء محكات لم تأخذ في الاصطلاح فقط البُعدين المكاني والجغرافي، وإنما تحاول التأكيد والتنبه إلى الأبعاد الثقافية والسياسية والأيديولوجية بين الثنائيتين في انفصامهما، وفي الوقت ذاته، كانت هذه الدراسات تتعمَّق -بشكل واسع- في دراسة اللغات السامية القديمة، واستكشاف المعالم والآثار، مُتجاهلة أو غافلة أن العهدين القديم والجديد يتحطمان تحت وطأة الدراسات النقدية: التاريخية، والأثرية، والألسنية؛ فتنفصل الدراسات اللاهوتية، والأخرى النقدية عن الاستشراق، ويصير الاستشراق تدريجاً اختصاصاً في فيلولوجيات أو تاريخ الإسلام والشرق الإسلامي وشعوبه وثقافاته.

ومن هُنا، كانت نقطة الفصل المنهجي الحقيقي التي شكلت الاستشراق، ومع هذا الانفصال صار الاستشراق أحد العلوم التاريخية؛ فاقترب مرة أخرى من الإنثروبولوجيا مع فارق أساس في المنهج؛ فالمنهج الإنثروبولوجي بحسب السيد منهج تأصيلي يفسر كل شيء بالعودة إلى الأصل المفترض رمزاً أو حقيقة أو تاريخاً، بينما التاريخانية التي تعتمد الفيلولوجيا النصية، والتطورات التاريخية، هي التي تسود في الاستشراق.

إننا لا يُمكن أن نفصل العلاقة بين الاستشراق والإنثروبولوجيا، إنهما -وبحسب توصيفات الكثير من الدارسين- شكَّلا رافدين أساسيين للسلطة الاستعمارية في الشرق؛ فهما من ناحية الموضوع يشتركان في موضوع واحد، هو الشرق أو العالم الثالث، لكن الاستشراق أسبق من الإنثروبولوجيا من الناحية التاريخية"، إلا أنَّ الدراسات الإنثروبولوجية زوَّدت المستشرقين بمادة غنية لبناء تصوراتهم عن الحياة الفردية والاجتماعية للمجتمعات المتخلفة. ويؤكد عمر كوش أنه: "وإن كان الاستشراق -في إحدى مراحله- مجالاً لتطبيق ونشر العلم الحديث في الشرق، إلا أنه جعل من الشرق ميداناً إنثروبولوجيا وإثنولوجياً مجرداً من قيمه وتاريخه، وظهر -وفق توصيفاته- الشرقي: العربي والتركي والفارسي، صورة للشهواني القاسي، أو صورة البربري الفظ، خاصة الشمال إفريقي. يجمع بين هذه الصور دين بسيط وبدائي ومتعصب وعدواني هو الإسلام، وكانت مسيحية القرون الوسطى قد بنت هذه الصور، ونسجتها مخيلة تمركزها اللاهوتي الذي دفع إلى حدوث أكبر مواجهة دينية بين الإسلام والمسيحية خلال الحروب الصليبية...."

أما فيما يتعلق بعلاقة الاستشراق بالسلطة الاستعمارية، فكانت الثنائية حاضرة بقوة تحت قصبة (مستعمر/ مستعمَر). وهنا يذكر السيد أنه حتى بعد الاستقلال، كان الاستشراق يمارَس في دوائر الجامعات التي أنتجت الأطروحات الأساسية عن المجتمعات غير الأوروبية، وغير المتقدمة بالمقاييس نفسها. وإدوارد سعيد، وفرانز فانون، وكلاستر، وغوشيه...وغيرهم يرون أن هذه الثنائية مهمة وأساسية في فهم أطروحات الاستشراق الأساسية. وهذا في تقديري يعود للطبيعة التي قام عليها الاستشراق والدراسات المتصلة به فهو ليس ظاهرة خلقتها ظروف تاريخية محددة فحسب . كما أنه لم يشكل -عبر تاريخه- إفرازاً لحاجات ومصالح الغرب الحيوية المتصاعدة وحدها، بقدر ما كان إفرازاً، بقدر ما يُمكننا اعتباره في الآن ذاته إفرازا دوغمائيا لعقل ميتافيزيقي متمركز على ذاته، همَه الأساس إنتاج الآخر (أي آخر) وفق صور الرغبة والمخيال، تعتريها تشوهات الإحالة والفصل والمعايير الميتافيزيقية التي وسمت مجمل تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية الغربية.

ومن هنا؛ فإنَّنا نخلص إلى أن (ميتافيزيقا الاستشراق) إن صحت تسميتها حاولت بشكل أو بآخر إظهار الذات الغربية في زهو تفوقها وقوتها وسطوتها، بينما حاولت على الطرف النقيض تزييف ثقافة الآخر الشرقي (خصوصاً الإسلامي) واحتقار ثقافته ولغته وديانته ووجوده، ووضعه خارج التاريخ، وخارج الفضاء الكوني المشترك الذي يناضل من أجله الجميع، مجردة إياه من القيم الإنسانية المشتركة، حيث يقول السيد في معرض الورقة "...أوضح أنور عبدالملك في دراسته الرائدة "الاستشراق في أزمة" ١٩٦٣ أن المشكلة في التخصص الاستشراقي مزدوجة.. هناك أولاً النقد الاستعماري، الذي يعتبر الاستشراق بطرائقه الفيلولوجية والتاريخانية من مواريث عصر الاستعمار. وهناك ثانياً النقد العلمي الذي يعتبر أن الاستشراق لم يفد من الثورة الحاصلة في العلوم الاجتماعية والتاريخية. وجاءت دراسة إدوارد سعيد عام ١٩٧٨ ساحقة لأنها أثبتت أنَّ الاستشراق تخصص استعماري، أي أنه نشأ في حضن الاستعمار، ونقل أطروحاته، أو أنه حشر الإسلام والشرق في صورة أشبعت وتُشبع طموحات الغرب ومطامعه في استعمار، واستمرار امتلاك، الإسلام والعالم الإسلامي..."

وفي تقديرنا، قد لا ينطبقُ هذا التوصيف على توجهات وجهود بعض كبار المستشرقين، إنما على مجمل حركية وفاعلية الاستشراق، خصوصاً خلال مراحل اقترانها بالمدّ الاستعماري.

mu7k20@gmail.com